مولد النبي

صلى الله عليه وعلى آله وسلم

تأليف

الإمام شيخ الإسلام شهاب الدين أبي العباس

أحمد بن محمد بن أحمد ابن حجر الهيتمي السعدي

الأنصاري

رحمه الله تعالى

(909–974 هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي شرَّفَ هذا العالم بمولد سيد ولد آدم، وكمَّل به سعودَ الأنبياء والمرسلين، وجميع الملائكة لاسيما الكروبيين والمقربين، وجمع فيه سائر الكمالات الباطنة والظاهرة، وجعله إمام المتفضل عليهم والمِد لهم في الدنيا والآخرة، وختم بشريعته الغراء الواضحة البيضاء المحفوظة من التحريف والتبديل إلى أن ينفخ في الصور إسرافيل، فهي خير الشرائع وأعدلها، كما أن أمته خير الأمم وأفضلها، ولذا به جُمع جميع من في كتب الله المنزلة، وفاق عليها بكمالات لا تحصى مفصلة ومجملة، كيف والمانُّ عليه والمتفضل بوصوله إليه يقول عزَّ قائلاً من جملة مدحه ويشير إلى بعض شرحه (ما فرطنا في الكتاب من شيء).

ومن ثَمَّ حوى من معجزاته صلى الله عليه وسلم ستين ألف معجزة، بل أكثر من ذلك، كما يعلمه من أطلعه الله على ما فيه من العلوم والمسائل، وحوى أيضاً من أنواع تعظيم نبينا صلى الله عليه وسلم وفصاحة أمره وعلو كماله وقدره وخطابه بأنواع المدايح والكمالات، وإعلام أمته بما بلغه من المقامات والخصوصيات، ما لا يحيط بكنهه الأعظم إلا المتفضل عليه بما لم يصل إليه مخلوق، ولم يلحقه كامل فيما له من المزايا والحقوق.

فمن ذلك: الخطاب الأعلى قوله عز قائلاً: **(يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً، ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً)**.

فأكرمه الله سبحانه وتعالى بأن جعله شاهداً على الرسل بأنهم بلَّغوا أممهم جميع ما أُوحي إليهم، وذلك لأنهم أتباعه وخلفاؤه، كما يومي إلى ذلك قوله تعالى: (**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول**) أي محمد صلى الله عليه وسلم (**مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال: أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري**) أي عهدي، (**قالوا: أقررنا، قال: فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين**).

ختم الله تعالى هذا المقام الأعظم لنبينا صلى الله عليه وسلم بقوله: (**فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين**)، ليعلمنا بعظيم شرفه ومرتبته، وأنه المتبوع وهم التابعون، والمقصود بالذات وهم لاحقون، وإنما تأخر ظهوره الحسي في هذا العالم عن جميعهم؛ ليكون مستدركاً عليهم ومتمماً لما فاتهم من الكمالات، جامعاً لجميع فضائلهم وزيادات، كما يدل لذلك قوله تعالى: (**فبهداهم اقتده**)، الدال على أنه لم يبق فيهم كمال وهدى ومعجزة وخصوصية إلا وقد توفر فيه ذلك الكمال والهدى، وأوتي مثل الآخرين، أو أعلى منهم جلالة وقهراً لأولي العناد، ولو لم يكن من ذلك ما ظهر عند حمله وقبيل وقت ولادته وفي أيام رضاعته وتربيته لكفى، كما جمعتُ ذلك في كتاب سميته: (**النعمة الكبرى على العالم، بمولد سيد ولد آدم**) بأسانيده التي نقلها أئمة السنن والحديث، الموصوفون بالحفظ والإتقان والجلالة والبرهان، في القديم والحديث، مما هو سالم من وضع الوضاعين وانتحال الملحدين والمفترين، لا كأثر المواليد التي بأيدي الناس، فإن فيها كثيراً من الموضوع الكذب المختلق المصنوع.

لكن في ذلك الكتاب بسطٌ لا يتم قراءته في مجلس واحد، فاختصرته هنا بحذف أسانيده وغرائبه، واقتصرت منه على ما يسنده متابع أو عاضد، روماً للتسهيل على المادحين، وقصداً لحيازتهم معرفة تلك المزايا والكرامات، لينتظموا بذلك في سلك

المحبين لذلك الجناب الرفيع، والجاه الواسع العريض المنيع. فقلتُ مفتتحاً بآية تناسب المقصود، وتدل على علو شرف ذلك المولود وهي قوله تعالى:

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تولوا فقل: حسبي الله لا إليه إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم).

فرسول الله صلى الله عليه وسلم هو:

سيد الأولين والآخرين، والملائكة المقربين، والخلائق أجمعين.

وحبيب رب العالمين.

أكرم رسل الله.

وأفضل خلق الله.

المخصوص بالشفاعة العظمى يوم الدين.

والمنصوص على عموم رسالته إلى العالمين: الإنس والجن والملائكة السابقين واللاحقين.

صاحب اللواء المعقود، والحوض المورود، والمقام المحمود، الذي يغبطه يحمده فيه الأولون والآخرون، ويحتاج إلى جاهه يومئذ الأنبياء والمرسلون، والملائكة المقربون.

وصاحب المعجزات الباهرة، والكرامات الباطنة والظاهرة، والحجة القويمة، والمحجة المستقيمة، والفضائل التي لا تحصى، والشمائل التي لا يمكن أن تستقصى.

فبالغْ وأكثر، لن تحيط بوصفه وأين الثريا من يد المتناول

فهو الذي اصطفاه الله تعالى بالمحبة والخلة والقرب [المنزه عن] الإحاطة والجهة.

[و]المنزلة.

وبالمعراج وما فيه من العجائب التي اطلع عليها.

والمزايا والفضائل التي أوتيها.

وبالصلاة بالأنبياء أجمعين في بيت المقدس، ذهاباً وعوداً، إعلاماً بأنه سيد الكل، وممدهم بدءاً وعوداً، بشهادته وشهادة أمته عليه وعلى أممهم بما بلغوه من أمرهم ونهيهم.

وبلواء الحمد.

والوسيلة.

والبشارة والنذارة.

والهداية والإمامة.

والرحمة للعالمين.

وبأن ربَّه يعطيه حتى يرضى، فيقول: يا رب لا أرضى لأحدٍ من أمتي في النار، فيخرجهم الله منها، ويلحقهم بالسادة الأتقياء الأبرار.

وبإتمام النعمة عليه.

وبتفويض سائر الإمدادات إليه.

وبشرح الصدر.

ورفع الذكر، فلا يذكر الله تعالى إلا ويذكر معه.

وبعزة النصر بالرعب من مسيرة شهر.

وبالتأييد بالملائكة.

وبنزول السكينة عليه وعلى أمته.

وبإجابة سؤاله ودعوته، لا سيما التي اختبأها لأمته حين لا ينفعهم غيرهما، ولا يسعهم إلا خيرها وميرها.

وبإقسام الله بحياته.

وبرَدِّ الشمس بعد غروبها عليه.

وبقلب الأعيان له.

وبكونه يبرئ من جميع الأمراض والآلام.

وباطلاعه على المغيبات، حتى ما سيقع في أمته إلى يوم القيامة.

وبدوام الصلاة عليه من الله تعالى وجميع ملائكته التي لا يحصي كثرتهم إلا هو تعالى، ومن أمته في سائر الأمكنة والأزمنة.

وبإجابة المتوسلين به وبأهل بيته وخلفائه وآله وصحابته وتابعيهم بإحسان على مرِّ الأزمان، إلى غير ذلك مما لا مطمع في حصره، ولا غاية لاستيعابه.

وسيرة سيدنا ومولانا وذخرنا وملاذنا، وملجأنا وممدنا، ومنقذنا ومكملنا وناصحنا: أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن غالب قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر، وقريش ينتهون إلى هذا.

وقال كثيرون: إلى فهر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وإليه ينتهي النسب المجمع عليه، ووراء ذلك أقوال متباينة، لا تثبت فيها شيء، فلا ينبغي الخوض فيها؛ للحديث عند صاحب مسند الفردوس، لكن الأصح أنه من قول ابن مسعود، ومع ذلك له حكم المرفوع إليه صلى الله عليه وسلم؛ لأن مثله لا يقال من جهة الرأي، أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا بلغ في النسب إلى عدنان أمسك، وقال: (كذب النسَّابون)، قال تعالى: (**وقرونا بين ذلك كثيراً**). قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو شاء الله أن يعلمه بهم لأعلمه بهم.

اعلم أن الله تعالى شرف نبيه بسبق نبوته في سابق أزليته، وذلك أنه تعالى لما تعلقت إرادته بإيجاد الخلق أبرز الحقيقة المحمدية من محض [العدم] قبل وجود ما هو كائن من المخلوقات بعد، ثم سَلَخ العوالم كلها، ثم أعلمه تعالى بسبق نبوته وبشره

بعظيم رسالته، كل ذلك وآدم لم يوجد، ثم انبجست منه صلى الله عليه وسلم عيون الأرواح، فظهر بالملأ الأعلى أصلاً ممداً للعوالم كلها.

قال كعب الأحبار: لما أراد الله أن يخلق محمداً أمر جبريل أن يأتيه بالطينة التي هي قلب الأرض، فهبط في ملائكة الفردوس وملائكة الرفيع الأعلى، فقبضها من محل قبره المكرم، أي وأصلها من محل الكعبة المشرفة، [فوجهها][1] الطوفان إلى هناك، فعجنت بماء التسنيم، ثم غمست في أنهار الجنة، حتى صارت كالدرة البيضاء، ثم طافت بها الملائكة حول العرش والكرسي في السماوات والأرض والبحار، فعرفت الملائكة وجميع الخلق سيدناً محمداً قبل أن تعرفَ آدم، ورأى آدم نور محمد في سرادق العرش، واسمه مكتوباً عليه، مقروناً باسمه تعالى، فسأل الله عنه، فقال له ربه: هذا النبي من ذريتك، اسمه في السماء أحمد، وفي الأرض محمد، ولولاه ما خلقتك ولا خلقت سماء ولا أرضاً، وسأله أن يغفر له متوسلاً إليه بمحمد صلى الله عليه وسلم، فغفر له.

ولما كان آدم طيناً استخرج منه نبينا صلى الله عليه وسلم ونُبِّئَ، ثم أخذ منه الميثاق قبل الأنبياء، ثم أعيد إلى آدم فنخفت فيه الروح، ثم استخرجت منه ذريته لأخذ الميثاق عليهم.

فنبينا صلى الله عليه وسلم هو المقصود من الخلق، وواسطة عقدهم، ورسول الرسل؛ لأن الله سبحانه أخذ الميثاق عليهم بأنهم من أتباعه.

[1] في المطبوعة: موجهاً.

فرسالته عامة لجميع الخلق إلى يوم القيامة، ولأجل ذلك تكون الأنبياء كلهم يوم القيامة تحت لوائه.

ولما ظهر آدم لمعَ نور نبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم في جبينه، ثم خلق من ضلعه الأيسر حواء، فأراد مدَّ يدِه إليها، فكفته الملائكة عنها حتى يصلي على نبينا صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، وفي رواية: عشرين.

ثم لما هبط إلى الأرض لِـما أراد الله من الحكم الباهرة -لو لم يكن منها [إلا] ليوجد نبينا صلى الله عليه وسلم أبانه في أمته الذين هم خير أمة أخرجت للناس لكفى-، ولدت له أربعين ولداً في عشرين بطناً، في كل بطن ذكر وأنثى، إلا شيئاً فاته، ولد وحده إعلاماً بأنه الوراث لأبيه نبوة وعلماً، فلذا انتقل النور المحمدي إليه.

ثم أوصى شيث ولده بما أوصاه به أبوه آدم، أن لا يضعه إلا في المطهرات من النساء، ثم لم تزل هذه الوصية معمولاً بها إلى زمن عبد الله بن عبد المطلب، فطهر الله هذا النسب الشريف من قبائح الجاهلية وما كانوا عليه.

[وما زال] ذلك النور يزداد تلألؤاً في جبهة جده عبد المطلب، ببركته توجه إلى الله به في أصحاب الفيل الذين قصدوا مكة ليخربوها.

وقد آن إبان الحمل به صلى الله عليه وسلم، فأرسل الله عليهم الطيور الأبابيل من البحر، فأهلكهم قبل وصولهم الحرم بها عن آخرهم، إلا واحداً منهم؛ ليخبرهم إرهاصاً وكرامة لظهور محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم ظهر ذلك النور في جبهة أبيه عبد الله الذبيح، الذي فداه الله من إرادة أبيه ذبحه، وفاءاً لنذره إياه في المنام، لما دله الله عليه بئر زمزم، وكانت دثرة، فنجاه الله من الذبح ببركة ذلك النور، بأن ألهم الله أباه أن يفديه بمائة بعير.

ولما فدي أدركت امرأة منه ذلك النور، فخطبته لنفسها وتعطيه البعير التي فدي بها، فأبى حتى يأذن أبوه، ثم ذهب به أبوه إلى وهب بن عبد مناف بن زهرة، وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً، فزوجه لوقته ابنته آمنة، أفضل امرأة في قريش، فوقع عليها من فورِه، فحملت بسيد الخلائق من ساعتها، ففارقه أعظم ذلك النور، فعرض نفسه على الأولى، فأبت وقالت له: فارقك ما كنت أؤمل انتقاله إليّ من النور الذي كان معك، ونودي ليلة حمله، وهي ليلة الجمعة من رجب، في السماء والأرض: إن النور المكنون الذي منه محمد يستقر الليلة في بطن آمنة، ويخرج للناس بشيراً ونذيراً.

وأمر رضوان أن يفتح باب الفردوس، ونقطت كل دابة لقرى تلك الليلة، وقالت: حمل محمد ورب الكعبة

وهو إمام أهل الدنيا [وسراج أهلها ، ولم يبقَ سرير لملك من ملوك الدنيا] إلا أصبح منكوساً، وأصبح كل ملك أخرس لا ينطق يومه ذلك، ومرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب تبشرها به، وكذا بشر ما في البحار بعضهم بعضاً، ورأت آمنة رضي الله عنها بين النوم واليقظة قائلاً يقول لها: أشعرت بأنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها. ورأت أنه خرج منها نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب.

ولما مضى لحملها ستة أشهر أتاها آت في منامها فركضها برجلة، وأخبرها بأنها حملت بسيد العالمين، وأنها تسميه محمداً، وأنها تكتم شأنها.

وفي رواية: أنها وجدت له أعظم الثقل، والروايات المشهورة: أنها لم تجد من ذلك شيئاً. وجُمع بأن الأولى في أول الحمل، والأخرى في آخره، ليقع مخالفة المعتاد فيهما، حتى يعلم أن كل أموره صلى الله عليه وسلم خارقة للعادات.

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم بِكرُها، وأخرى لا، وجمع بأنه يحتمل أنها أسقطت قبله.

وفي رواية وهي الأشهر أن أباه مات وهي حامل به، وعليها المعظم.

وفي أخرى أنها حملت به أكثر من تسعة أشهر، والأصح خلافها.

ولم تزل أمُّه صلى الله عليه وسلم ترى وهي حامل به ما يدل على عظم قدره، مما تواترت الأخبار بنقله من الكرامات والآيات الباهرة إلى أن مضت تلك الشهور، وأشرق الوجود بذلك النور، فأخذها ما يأخذ النساء من الألم، ولم يعلم بها أحدٌ فسمعت شيئاً، فبينا هي كذلك أهالها فرأت كأن جناح طائر أبيض مسح على فؤادها، فذهب روعها، ثم التفت وإذا بشربة بيضاء فيها لبن وكانت عطشى، فشربتها ثم رأت نسوة كالنخل طولاً من الحور العين، فاشتد الأمر وتكرر سماعها لذلك المهول، وإذا هي بديباج أبيض مُدَّ بين السماء والأرض، وإذا قائل يقول: خذوه عن أعين الناس، ورأت أيضاً رجالاً وقفوا في الهوى بأيديهم أباريق من فضة، وأنها يرشح منها عرق أطيب من المسلك الأزفر.

ورأت أيضاً قطعة من الطير أقبلت حتى غطت حجرتها، مناقيرها الزمرد وأجنحتها الياقوت، وأبصرت حينئذ مشارق الأرض ومغاربها، فرأت ثلاثة أعلام مضروبات: علماً بالمشرق وعلماً بالمغرب، وعلماً على ظهر الكعبة، فأخذها المخاض

واشتد بها الأمر، وكأنها مستندة إلى نساء قد كثرن عليها، حتى كأنهن معها في البيت، فحينئذ ولدته صلى الله عليه وسلم ليلاً كما في روايات، أو نهار كما في روايات أخرى، ولا تَـخَالف؛ لاحتمال أنه بعد طلوع الفجر موصوفاً في روايات بأوصاف تليق بكماله الأعظم، وسؤدده الأفخم.

[و] منها أنه لم يخرج معه دمٌ ولا قذر أصلاً.

وأنه رؤي حينئذ نور عمَّ البيت والدار.

وأن النجوم دنَت وتدلَّت، حتى ظَّن مَنْ هناك سقوطَها عليهم.

وأن قابِلَته سمعت قائلاً يقول: يرحمك الله، فسطع نور أضاء ما بين المشرق والمغرب، لا سيما الشام وقصورها، إشارةً إلى أن يصل إليها بنفسه، وأن الإسراء يكون إليها، ثم منها إلى السماء، وأنها دار ملكه، كما في أثر، ومهاجر الأنبياء، وأنه ما من نبيٍّ إلا وهو منها، أو هاجر إليها، وبها ينزل عيسى عليه السلام، وأرض المحشر والمنشر.

قال صلى الله عليه وسلم: (**عليكم بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبى إليها خيرته من عباده**)،.

وفي رواية: أنه صلى الله عليه وسلم حين ولد وقع معتمداً على يديه، ثم أخذ قبضة من تراب ورفع رأسه إلى السماء، وقبض التراب إشارة إلى أنه يملك الأرض، وأنه ينثره في وجه أعدائه فيهزمهم، وكان الأمر كذلك يوم بدر أو حنين، أخذ صلى الله عليه وسلم كفاً من تراب وضرب به وجه العدو، فلم يبق منهم أحدٌ إلا وأصابه منه فوروا منهزمين خائبين آيسين.

[وأنه] ولد جاثياً على ركبتيه، ينظر إلى السماء، ثم قبض قبضة من الأرض وأهوى ساجداً، وأنه وضع تحت برمة كما كانوا يعتادون ذلك في المولودين عقب ولادتهم، فانفلقت تلك البرمة عنه، وإذا به قد شق بصره ينظر إلى السماء، ويمص إبهامه، فتشخب لبناً.

وأن سحابة بيضاء نزلت من السماء، فغيبته عن وجه أمه برهة، فسمعت قائلاً يقول: طوفوا بمحمد مشارق الأرض ومغاربها، وأدخلوه في البحار كلها ليعرفه جميع من بها باسمه ونعته وصفته، ويعرفوا بركته، ثم انجلت عنه، فإذا به قد مدرج في ثوب صوف أبيض وتحته حريرة خضراء وقد قبض على ثلاثة مفاتيح من اللؤلؤ الأبيض الرطب، وإذا قائل يقول: قبض محمد صلى الله عليه وسلم على مفتاح النصر، وعلى مفتاح الذِّكْر، وعلى مفتاح النبوة، وفي رواية: أنها رأت سحابة أعظم من الأولى يسمع فيها صهيل الخيل وخفقان الأجنحة وكلام الرجال حتى غشيته فغيب عنها أكثر من المرة الأولى، وسمعت قائلاً يقول: طوفوا بمحمد جميع الأرضين وعلى النبين والجن والإنس والملائكة ثم انجلت عنه، فإذا به قد قبض على حريرة خضراء مطوية طياً شديداً، ينبع منها ماء معين، وإذا قائل يقول: قبض محمد على الدنيا كلها، لم يبق خلق من أهلها إلا دخل في قبضته طائعاً، ثم غشيه ثلاثة من الملائكة بيد أحدهم إبريق، والثاني طست من ذهب وبرد أخضر، والثالث: حريرة بيضاء فنشرها فأخرج منها خاتماً تحار أبصار الناظرين دونه فغسله من ذلك الإبريق سبع مرات، ثم ختم بين كتفيه بالخاتم، ولفه في الحريرة ثم احتمله وأدخله بين أجنحته ساعة، ثم رده.

ولا يعارض هذه الرواية رواية أنه ولد بالخاتم، ولا رواية أنه ختم به لما شقَّ صدره وهو عند حليمة؛ لأنه لا مانع من تكرر الختم إظهاراً لمزيد الكرامة والتميز والاعتناء به.

وأخبرَ جماعة من الأحبار والرهبان في ليلة ولادته بها قبل أن يولد، وأجمعوا على ذهاب ملك بني إسرائيل وآمن به بعضهم.

وفيها أرتج واضطرب إيوان كسرى الذي لم يبنَ أحكم منه، فانصدع وانشق وسقط من أعلاه أربع عشرة شرفة؛ إشارةً إلى أنه لم يبق من ملك الفرس إلا أربعة عشر، وكان آخرهم في خلافة عثمان.

وخمدت تلك الليلة نار فارس التي كانوا يعبدونها ولم تطفأ قبل ذلك بألفي عام، بل كانت توقد وتضرم أشد الإيقاد والإضرام ليلاً ونهاراً، فلم يقدر واحد تلك الليلة على إيقاد شيء منها.

وغاضت ونشفت بحيرة طبرية التي كانت تسير فيها السفن، فلم يبق تلك الليلة قطرة ماء، فبنى محلها مدينة تسمى ساوة.

وردت تلك الليلة الشياطين المسترقون للسمع في السماء بالشهب فلم يعودوا إليها.

وحجب إبليس عن خبر السماء، فرنَّ رنة عظيمة، كما رنَّ حين لعن، وحين أخرج من الجنة، وحين ولد محمد صلى الله عليه وسلم، وحين بعث، وحين نزلت عليه الفاتحة.

وأكثر العلماء على أنه ولد مختوناً، مقطوع السرة حتى لا يرى أحد سوأته.

ومن أسباب تسمية جده عبد المطلب له محمداً ما روي أنه رأى سلسلة فضة خرجت من ظهره لها طرف بالسماء وطرف بالأرض، وطرف بالمشرق وطرف بالمغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب متعلقون بها، فعبِّرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء والأرض، فلذلك سماه محمداً.

واختلفوا في منتهى مولده، ويومه على أقوال كثيرة، ولا خلاف أنه ولد يوم الاثنين.

والأشهر أنه ولد في شهر ربيع الأول.

والأشهر أيضاً أنه في ثاني عشر، وكثير من أئمة حفاظ متقدمون وغيرهم أنه يوم ثامنه.

والصواب أنه ولد بمكة، ولا يجوز اعتقاد غيره.

والأشهر أن محل مولده المشهور سوق الليل، وهو الآن مسجد لله تعالى، وقفته مسجداً الخيزران أم الرشيد.

وأول من أرضعته ثويبة، مولاة عمه أبي لهب، وأعتقها لما بشرته بولادته، فخفف الله عنه من عذابه كل ليلة اثنين؛ جزاءًا لفرحه فيها بمولده صلى الله عليه وسلم، كما جوزي عمه أبو طالب بسبب تربيته بأن خفف الله عنه من عذابه أيضاً.

وفي [رواية] أعتقها بعد الهجرة، فعليها التخفيف عنه لكونه أمرها بإرضاعه.

ثم أرضعته بعدها حليمة السعدية رضي الله عنها، كانت تأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيبسط لها رداءه، وكذا زوجها السعدي أيضاً، وبنتها الشيماء التي كانت تحضنه صلى الله عليه وسلم مع أمها.

وخلاصة قصة رضاعه أنها خرجت في نسوة من قومها يلتمسن الرُّضعاء بمكة، فكلهن أعرضن عنه صلى الله عليه وسلم لـيُتمه، حتى هي أولاً، ولكن لما لم يحصل لها غيره جاءت إليه وأخذته، فرأته مدرجاً في ثوب صوف أبيض من اللبن، يفوح منه المسك، وحريرة خضراء، وكان راقداً على قفاه، فهابته أن توقظه، فوضعت يدها على صدره فتبسم ضاحكاً وفتح عينيه، فخرج منهما نور حتى دخل خلال السماء، فقبلته وأعطته ثديها الأيمن فقبله، وحركته إلى الأيسر فأبى، كأن الله ألهمه العدل وأعلمه أن له شريكاً هو ابنها، فترك له ثديها الأيسر، وكانت هي وناقتها وأتانها في أشد الجوع والهزال وعدم اللبن، فبمجرد أن وضعته في حجرها أقبل عليه ثديها، فرَوِي وروي أخوه، ودرَّت ناقتها، فأشبعتهم تلك الليلة لبناً، فلما أصحبت ودعت أمُّه أتانها وهو بين يديها، فرأت الأتان سجدت نحو الكعبة ثلاث مرات، ورفعت رأسها إلى السماء، فلما خرجت مع قومها سبقت أتانها الكل، بعد أن كانت لا تنهض بهما، فأنكرن أنها هي، فلما علمن [صدقن] أن لها شأناً عظيماً.

وكانت تسمعها تقول: إن لي لشأناً، ثم شأناً، بعثني الله بعد موتي، لو علمتي من على ظهري؟ عليه خيار النبيين وسيد الأولين والآخرين.

فلما وصلوا منازلهم كانت أجدب أرض الله، فكانت غنم حليمة ترجع، وغنمهم ما بها قطرة، مع أنها كلها بمحل.

فلما تم له صلى الله عليه وسلم عندها سنتان، عادت به إلى أمه، ثم لم تزل بها حتى رجعت به، فمكث عندها شهرين، فبينما هو وأخوه يرعيان خلف البيوت، وإذا بأخيه يشد عدواً لأبويه: أدركا أخي القرشي. فأدركاه منتقعاً لونه، فأعتنقاه وسألاه، فأخبرهما أنه أتاه رجلان، عليهما ثياب بيض، ثم أضطجعاه، فشقا بطنه فخافا عليه، ورداه فوراً إلى أمه، فقالت: ما ردكما به وقد كنتما حريصين عليه؟ ثم لم تزل بهما حتى أخبراها، فقالت: أفتخوفتما عليه الشيطان؟ كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل، وأنه كائن لابني هذا شأن.

وشق صدره الشريف أيضاً وهو ابن عشر، ثم عند مبعثه، ثم عند الإسراء به ليكون [لكل] طور من أطوار طفوليته، ثم بلوغه، ثم بعثه به كمال يخصه ويليق به، إلى ما بعده من الكمالات التي لم يزل مترقياً فيها إلى ما لا نهاية له، فلا ينافي ذلك كونه خلق من الأمر على أكمل الأحوال الظاهرة والباطنة.

وكان وهو عند حليمة إذا خرج إلى الغنم تظل عليه الغمامة، وإذا وقف وقفت، وإذا سار سارت.

وكان وهو في المهد يناغي القمر، أي يحادثه، ويشير إليه بإصبعه، فحيث أشار إليه مال، ولما أخبر صلى الله عليه وسلم بذلك قال: إني كنت أحدث ويحدثني، ويلهيني عن البكاء، وأسمع وجبته حين سجد تحت العرش.

وتكلم صلى الله عليه وسلم في أوائل ما ولد.

وكان [في] مهده يتحرك بتحريك الملائكة.

قالت حليمة: وأول ما فطمته قال: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً.

[ولـما] بلغ صلى الله عليه وسلم أربع سنين، وقيل أكثر، ماتت أمه عند مرجعها من المدينة، ذهبت إليها به لتزور أخوال جده عبد المطلب بني عدي بن النجار، ودفنت بالأبواء، قرية عند الفرع، فرجعت به أم أيمن، دايته وحاضنته ومرضعته، يقال إنه ورثها من أبيه أو من أمه أو أن خديجة وهبتها له، وقيل: دفنت بالحجون.

ويشهد له روايات كثيرة.

ولـما بلغ ثمان سنين، وقيل: أقل، وقيل: أكثر، مات جده عبد المطلب عن مائة سنة وعشر وأربعين، ودفن بالحجون، فكفله عمه شقيق أبيه أبو طالب، بوصية من عبد المطلب له بذلك.

ولـما بلغ ثنتي عشرة سنة خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام، حتى بلغ بُصرى، فعرفه بحيرا الراهب، وأخبرهم بصفات نبوءته ورسالته وبخاتم النبوة الذي بين كتفيه وآمن به.

ثم أقسم على عمه أن يرجع به؛ خوفاً عليه من اليهود، إذ قيل: منهم سبعة يريدون قتله، [فأمنهم] بحيرا، وأخبروه أن اليهود تفرقت في كل طريق لعلمهم أنه خارج في هذا الشهر.

جملة ما رآه بحيرا: تظليل غمامة بيضاء له.

وأنه نزل تحت شجرة، فأرخت أعضاءها عليه تظله.

فلما بلغ عشرين سنة عاد إلى الشام في تجارة، ومعه أبو بكر فسأل بحيرا عنه، فأقسم له أنه نبي.

ثم لما بلغ خمساً وعشرين سنة رجع إلى الشام أيضاً في تجارة لخديجة، ومعه غلامها ميسرة، فكان يرى ملكين يظلانه من الشمس، ورأت ذلك خديجة [ذلك لما] رجعوا.

وبعد رجوعه بنحو ثلاثة أشهر تزوجها وعمرها أربعون سنة بعرض منها لنفسها عليه.

لما بلغ صلى الله عليه وسلم خمساً وثلاثين سنة بنت قريش الكعبة، فكان صلى الله عليه وسلم هو الواضع للحجر الأسود في محله.

لما بلغ أربعين سنة أرسله الله رحمة للعالمين، ورسولاً لكافة الخلق أجمعين، صلى الله عليه وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وتابعيهم أفضل صلاة وأفضل سلام وأفضل بركة، عدد معلومات الله ومداد كلماته أبد الآبدين ودهر الداهرين.

اللهم إنا نتوسل به إليك، ونتضرع بحوائجنا بجاهه لديك، فهو الوسيلة العظمى، والساقي من الحوض الذي من شرب منه لا يظمأ.

اللهم فصل وسلم عليه وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين، وعن بقية الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، والأئمة الأربعة المجتهدين، ومقلديهم بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

قال الناسخ لهذا الأصل: تم مولد ابن حجر في شهر جمادى الأولى بعد الظهر، يوم السبت أربع وعشرين سنة 1200هـ.